لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

فلسطين:
من الاسكندر إلى الفتح العربي الاسلامي

الدكتور نقولا زيادة

- ناصري الأصل ولد في دمشق ١٩٠٧.
- حصل على الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) من جامعة لندن (١٩٣٩) وعلى الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن (١٩٥٠).
- درّس في الكلية العربية والكلية الرشيدية في القدس (١٩٣٩ ـ ١٩٤٧)، وفي الجامعة الأميركية في بيروت (دائرة التاريخ) من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٧٣. وهو الآن أستاذ شرف في تلك الجامعة. ودرّس كأستاذ زائر في هارفارد (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣) وفي الجامعة الأردنية (١٩٧٦ ـ ١٩٧٨) وفي الجامعة اللبنانية (١٩٧٨ ـ ١٩٨٠). وزار محاضراً عدداً من الجامعات العربية والأوروبية والأميركية والهندية.
- من مؤلفاته بالعربية: رواد الشرق العربي، القومية والعروبة، ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال، قمم من الفكر العربي الإسلامي. ومن مؤلفاته باللغة الإنكليزية: الحياة المدنية في سوريا في أوائل عهد المماليك، سوريا ولبنان، السنوسية، دمشق في عهد المماليك، أصول القومية في تونس. وقد كتب عدداً كبيراً من المقالات في المجلات العلمية وفي الدوريات.

فلسطين:
من الاسكندر إلى الفتح العربي الاسلامي

الدكتور نقولا زياده

● ناصري الأصل ولد في دمشق ١٩٠٧.

● حصل على الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) من جامعة لندن (١٩٣٩) وعلى الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن (١٩٥٠).

● درّس في الكلية العربية والكلية الرشيدية في القدس (١٩٣٩ ــ ١٩٤٧)، وفي الجامعة الأميركية في بيروت (دائرة التاريخ) من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٧٣. وهو الآن أستاذ شرف في تلك الجامعة. ودرّس كأستاذ زائر في هارفارد (١٩٥٦ ــ ١٩٥٧، ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣) وفي الجامعة الأردنية (١٩٧٦ ــ ١٩٧٨) وفي الجامعة اللبنانية (١٩٧٨ ــ ١٩٨٠). وزار محاضراً عدداً من الجامعات العربية والأوروبية والأميركية والهندية.

● من مؤلفاته بالعربية: **رواد الشرق العربي، القومية والعروبة، ليبيا من الاستعمار إلى الاستقلال، قمم من الفكر العربي الإسلامي**. ومن مؤلفاته باللغة الإنكليزية: **الحياة المدنية في سوريا في أوائل عهد المماليك، سوريا ولبنان، السنوسية، دمشق في عهد المماليك، أصول القومية في تونس**. وقد كتب عدداً كبيراً من المقالات في المجلات العلمية وفي الدوريات.

المحتويات

الفصل الأول ــ **من الاسكندر إلى بومبي** ١٤١
١ ــ مقدمة ١٤١
٢ ــ البطالمة والسلوقيون وفلسطين ١٤٦
٣ ــ إدارة فلسطين في زمن البطالمة ١٤٨
٤ ــ فلسطين في زمن السلوقيين ١٥٠
٥ ــ المدن الهلينستية ١٥٣
٦ ــ مجتمع فلسطين في العصر الهلينستي ١٥٦
٧ ــ الحياة الاقتصادية في فلسطين ١٦٠
٨ ــ المصارف والنقد ١٦٦
٩ ــ الهلينية وفلسطين ١٦٨

الفصل الثاني ــ **من بومبي إلى ديوقلتيان** ١٧٤
١ ــ رومة تحتل فلسطين ١٧٤
٢ ــ هيرودس وخلفاؤه ١٧٧
٣ ــ فلسطين ولاية رومانية ١٧٩
٤ ــ المسيحية ــ نشأتها وانتشارها الأول ١٨٢
٥ ــ الحياة الاقتصادية ١٨٥
٦ ــ من مرقس أوريليوس إلى ديوقلتيان ١٩٠
٧ ــ المسيحية في فلسطين إلى أيام قسطنطين ١٩٥

الفصل الثالث ــ **فلسطين من قسطنطين إلى هرقل** ٢٠١
١ ــ فلسطين من ٣٥٠ إلى ٥٢٧م ٢٠١
٢ ــ فلسطين والمسيحية بعد قسطنطين ٢٠٧
٣ ــ السكان والأعمال من القرن الرابع إلى القرن السادس ٢١٣
٤ ــ الحياة الفكرية في فلسطين ٢١٥
٥ ــ العمران والفنون (إلى القرن الرابع للميلاد) ٢٢٣
٦ ــ الفنون والبناء (من القرن الرابع إلى القرن السابع) ٢٣٢
٧ ــ من جستنيان إلى هرقل ٢٣٨

الخاتمة ٢٤١

الحواشي ٢٤٤

المراجع ٢٥٢

الفصل الأول

من الإسكندر إلى بومبي

١ ــ مقدمة:

لم تتوقف حركة التاريخ في فلسطين منذ أن بدأ مسيرته في مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. فالبلد الذي يقتعد ملتقى الطرق ومفارقها لا يُسمح لبنيه أن يهجعوا أو يعرفوا الراحة. فالجيران الأقربون والطامعون الأبعدون لا بد أن يتحرَّشوا بهم ــ دغدغة أو لكزاً أو سلباً أو نهباً أو حرباً أو سبياً أو تهجيراً.

وكان رقاص الساعة يتحرك، بالنسبة لفلسطين، خلال الفترة الممتدة من الألف الرابع إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، من الشرق إلى الغرب ــ هجرة أقوام هبطوها من الصحراء وتنقُّل قبائل جاءت تستوطنها ــ عموريّين وكنعانيين وغير ذلك. كما هاجمتها الدول التي قامت إلى الشرق منها فاتحة غازية ــ بابليّين وأشوريّين وكلدانيين وفرساً. وفي حالة واحدة فقط في تلك الفترة من حياة فلسطين جاء القوم الفاتحون من الجنوب من مصر. أما الغرب ــ البحر ــ فلم يأت منه إلى فلسطين سوى «شُعوب البحر»، الذين عُرفوا بالفلسطيين. جاؤوا البلاد في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهم الذين منحوا البلاد اسمها فلسطين.

وإذا نحن أخذنا هذه الهجرات المختلفة التي جاءت فلسطين إلى أيام الفرس، وفي القرن الرابع قبل الميلاد على وجه التحديد، وألقينا نظرة على التوزيع السكاني للبلاد في ذلك الوقت، توصلنا إلى النتائج التالية:

(أ) كان سكان الجليل في أكثرهم من الايطوريين العرب الذين كانوا قد وفدوا على تلك المنطقة وعلى لبنان قبل ذلك ببضعة قرون. وقد امتزج هؤلاء القادمون بالسكان الأصليين الذين هم، في غالبهم، بقية الكنعانيين. وقد كان العنصر الكنعاني أقوى في الجليل الأسفل وفي السفوح المتحدرة نحو السهل الساحلي.

(ب) كان العنصر الغالب على السهل الساحلي من جنوب صور إلى أواسطه العنصر الكنعاني. ومن هنا كان السكان هناك على تفاهم تام مع الفينيقيين المقيمين إلى الشمال منهم في فينيقيا، لأن هؤلاء هم أيضاً كنعانيون.

(ج) كان سكان السهل الساحلي الأوسط والجنوبي يتكونون أصلاً من الفلسطيين الذين استقروا أولاً (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) في الجزء الجنوبي ثم انتشروا شمالاً بحيث كانت لهم السيطرة على أكثر أجزاء السهل الساحلي وحتى على الأجزاء الغربية والجنوبية من مرج ابن عامر. وقد اختلط أولئك الفلسطيون مع العنصر الكنعاني الذي كان في فلسطين بأكملها قبلهم.

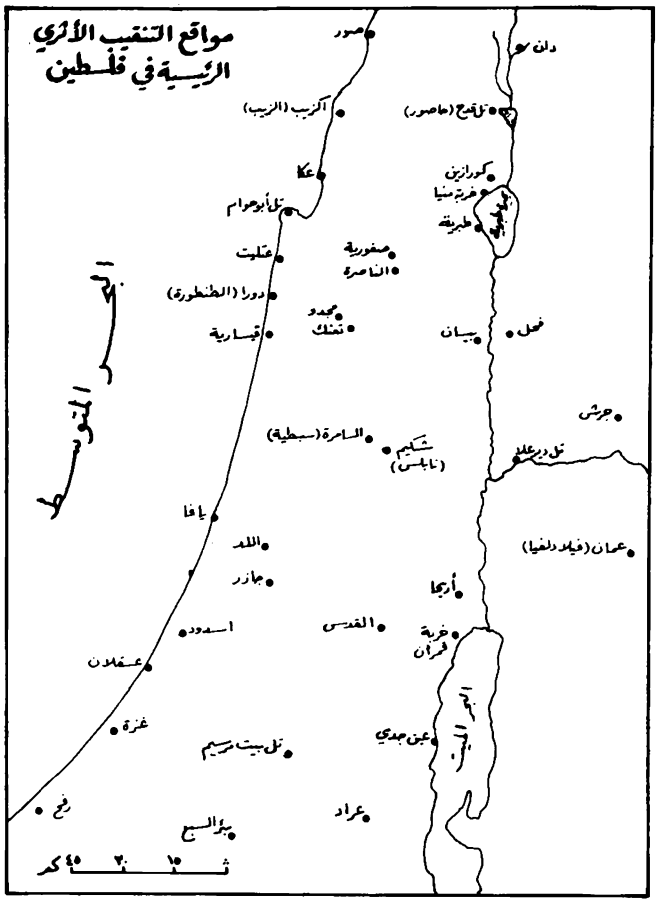

(د) كان سكان الجزء الجنوبي من فلسطين الذي كان يطلق عليه ادوم، الادوميين العرب الذين دخلوه في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد.

(هـ) كانت تقوم إلى الشمال من أدوم منطقة القدس وهي التي أطلق الفرس عليها اليهودية. وهذه الرقعة من الأرض كانت جزءاً صغيراً من فلسطين بحيث ان حدودها في كل اتجاه تتراوح في بعدها عن بيت المقدس بين ٢٠ و ٢٤ كم. وهذه هي المنطقة التي أعاد الفرس إليها جماعة من يهود السبي البابلي على يد الفرس بعد أن قضى هؤلاء على دولة الكلدانيين (٥٣٩ ق. م). ومع ذلك فلم يكن جميع السكان في هذه المنطقة يهوداً.

(و) وكانت السامرة تقع بين منطقة القدس ومنطقة الجليل. وسكان السامرة كانوا قد حملوا إلى آشور على أيدي سرجون لما احتل السامرة (٧٢٢ ــ ٧٢١ ق. م) وأرسل الأشوريون جماعات من أرض الرافدين والجوار استوطنت السامرة، المدينة والمنطقة المحيطة بها. والسكان الذين كانوا نتيجة هذا الاختلاط هم السامريون. فهم عنصرياً ليسوا يهوداً، ودينياً كان لهم وجهات نظر تختلف عن يهود بيت المقدس. فالجبل المقدس بالنسبة لهم هو جرزيم (قرب نابلس) والهيكل القائم عليه هو الأصل. ويجب أن نذكر أن أحد العناصر المؤثرة في تكوين السكان في فلسطين كان العنصر الآرامي، الذي كان يسيطر أصلاً على المنطقة الممتدة من حلب إلى جنوبي دمشق، لكن تنقله إلى الجهات الغربية والجنوبية أمر معروف.

(ز) كان سكان الجليل والسهل الساحلي وأدوم وثنيين. صحيح أنه كان في الجليل عدد من اليهود لكنه كان صغيراً إلى حد أن سمعان المكابي (١٤٣ ــ ١٣٤ ق. م) لما اعتزم حماية اليهود في الجليل من أذى جيرانهم رأى من المناسب أن ينقلهم جميعهم إلى اليهودية لأنه لم يكن من الممكن الحفاظ عليهم في منطقتهم الأصلية. وهذا يدل، في رأي شورر Schürer، على أن عددهم كان ضئيلاً. وأهل السامرة كانوا سامريين. وإذن فالمنطقة الوحيدة التي كان فيها عدد كبير نسبياً من اليهود هي بيت المقدس وجوارها (اليهودية).

(ح) وكانت اللغة الآرامية هي اللغة الشائعة في المنطقة، وفي فلسطين كجزء منها؛ وقد كانت لغة التخاطب بين الجماعة اليهودية في جميع أنحاء البلاد. حتى يرى شورر أنها كانت لغة التدوين عند الكثيرين من اليهود.

(ي) لما احتل يوحنا هركانوس الحشموني (١٣٤ ــ ١٠٤ ق. م) أدوم أرغم السكان على اعتناق اليهودية. ولما احتل أرستوبولس (١٠٤ ــ ١٠٣ ق. م) الجليل فعل بالسكان الشيء نفسه[1].

ولنعد إلى رقاص الساعة. إن حركته تبدلت في العقود الأخيرة من القرن الرابع قبل الميلاد، فأصبحت من الغرب إلى الشرق. تَمّ ذلك في أيام الإسكندر المقدوني، لكنه لم يتوقف معه. فقد استمر هذا الاتجاه الجديد مع الرومان ثم مع البيزنطيين. وبعد ألف سنة عاد الرقاص يتجه من الشرق إلى الغرب ثانية بدءاً بالفتوح العربية في مطلع القرن السابع للميلاد.

في سنة ٣٣٤ ق. م اجتاز الإسكندر البحر من اليونان إلى آسيا الصغرى، وأحرز أول انتصار على الفرس في معركة غرانيكوس Granicus. وفي السنة ذاتها انتصر على ملك فارس نفسه (دارا الثالث) في إيسوس Issus في كيليكيا Cilicia. واتجه بعد ذلك جنوباً نحو سواحل بلاد الشام رغبة منه في تدمير الأسطول البحري الفينيقي، الذي كان عماد فارس في شرق البحر المتوسط، والذي كان باستطاعته أن يقطع خط مواصلات الإسكندر مع مقدونيا. فاجتاز جبال طوروس وعمّر مدينة مرياندوس Miriandos وهي الإسكندرونة الحالية، وتسلّم إرواد من أهلها. وأرسل من هناك فرقة من جيشه مع بارمنيون

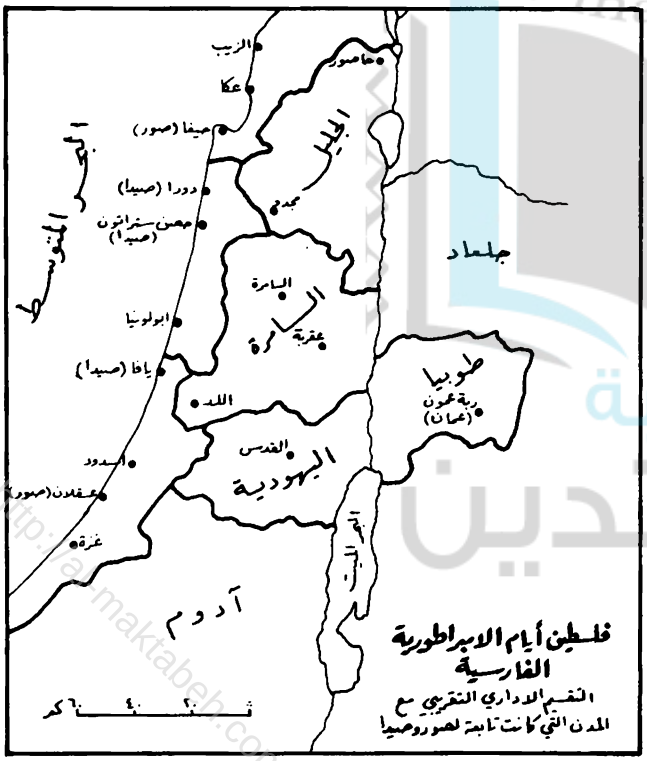

Parmenion، أحد قواده، إلى دمشق، فاحتلها هـذا بسهولـة واستولى على كنوز دارا التي كان قد أودعها المدينة.

سار الإسكندر بعد ذلك على الساحل الشامي، فسلّمت له بِبلوس (جبيل) وصيدا. أما صور فقد حاصرها سبعة شهور قبل أن يستولي عليها (تموز/يوليو ٣٣٢ ق. م). وقد قتل من سكانها ثمانية آلاف وباع عدداً كبيراً من أبنائها في أسواق الرقيق. وكانت غزّة المدينة الساحلية الثانية التي وقفت في طريقه. فقد صمدت على حصاره لها مدة بين شهرين وأربعة أشهر، وانتهى الأمر بها وبأهلها إلى ما انتهى إليه أمر صور: دُمّرت المدينة وقُتِل عدد من الرجال كبير، وبيع كثيرون من سكانها في أسواق الرقيق أيضاً (خريف ٣٣٢ ق. م).

أما مصر فقد تسلّمها الإسكندر سلماً، إذ كانت قد لقيت من الفرس الأمرّين، وكانت قد ثارت عليهم في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، فلما قضى الفرس على الثورة نكّلوا بالسكان بشكل فظيع.

خطط الإسكندر مدينة الإسكندرية وزار موحى آمون (في واحة سيوه) ونظم شؤون مصر، قبل أن يعود إلى فلسطين. وكان قواد الإسكندر قد أتمّوا فتح هذه البلاد. فقبلهم أهل بيت المقدس دون مقاومة. أما السامريون فقد سلّموا مدينتهم (السامرة) أولاً ثم ثاروا ضد أندروماكوس Andromachus الذي عيّنه الإسكندر حاكماً عليهم، وقتلوه حرقاً. فعاقبهم الإسكندر بأن قتل الكثيرين منهم، وغيّر نائبه الجديد بِردِكاس Perdiccas معالم المدينة وأقام فيها حامية عسكرية مقدونية كانت الأولى في فلسطين.

وعاد الإسكندر إلى بلاد الشام، حيث أعدّ حملته نحو فارس وأواسط آسيا وحوض السند. وبعد احتلال تلك المناطق عاد إلى بابل، حيث أخذ يخطط لفتوح جديدة. لكنه توفي هناك سنة ٣٢٣ ق. م[٢].

كانت وفاة الإسكندر المفاجئة سبباً في تنافس قوي بين قادته وخلفائه، ومدعاة لاضطراب حبل الأمن في امبراطوريته الواسعة. وبعد أخذ وردّ طويلين عقد قوّاد الإسكندر مؤتمراً في بابل (سنة ٣٢٣ ق. م)، حيث تقرّر الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية. لكن هذا كان أمراً ظاهراً فقط، لأن خلافاً قام بين الجماعة حول ولاية شؤون الامبراطورية إلى أن يبلغ ابن الإسكندر الطفل أشدّه. وعقد القواد مؤتمراً ثانياً في شمال سوريا (سنة ٣٢١ ق. م) أيّدوا فيه المقررات السابقة، لكن ذلك لم ينه الخلاف بينهم. فقامت حروب بين هؤلاء الخلفاء استمرت إلى سنة ٣٠١ ق. م.

إذ التحم الفريقان الرئيسان المتخاصمان في معركة إبسوس Ipsus، كانت نتيجتها الفعلية بدء تجزئة الامبراطورية.

والذي يهمنا هو ما أصاب بلاد الشام ومصر، لأن تاريخ فلسطين ارتبط بتاريخهما ارتباطاً عضوياً في الفترة التالية لمدة قرون ثلاثة على الأقل. لقد تولّى سلوقس الأجزاء الآسيوية، كما احتفظ بطليموس بولاية مصر، إلا أنه استبد أيضاً بالأجزاء الشامية الواقعة إلى الجنوب من خط يمتد من جنوبي دمشق تقريباً إلى الساحل غرباً على مقربة من اللاذقية. وقد ذاقت فلسطين، خلال هذه السنوات الاثنتين والعشرين التي مرت بين وفاة الإسكندر ومعركة إبْسوس، الأمرّين من الحروب المذكورة. فقد عبرتها الجيوش المتحاربة سبع مرات واحتلت بعض أجزائها ولو موقتاً، واقتحمت بيت المقدس مرة واحدة على الأقل.

وقامت سلسلة من الحروب بين من تبقى من قادة الإسكندر ومن خَلَفهم استمرت إلى سنة ٢٧٧ ق. م. ونحن إذا ألقينا نظرة على المنطقة بعد نحو نصف قرن من وفاة الإسكندر، وجدنا أن الجيل الأول من الضباط والقادة الذين رافقوا الإسكندر كان قد فارق الحياة؛ وأن الجيل الجديد الذي وضعت الأمور في يده لم يكن يُعنى بوحدة الامبراطورية، بل كان يرى أن هذه الرقعة الواسعة تتسع لثلاثة عروش على الأقل: واحد في آسيا وثان في أفريقيا وثالث في أوروبا (في مقدونيا). وقد اتجه اهتمامهم نحو تحقيق أحلامهم ومخططاتهم. ويعنينا من هذا كله دولتان: السلوقيون في بلاد الشام والبطالمة في مصر[٣].

وقبل البدء بالحديث عن هاتين الدولتين فإننا نضع بين يدي القارىء جدولين بأسماء ملوك البطالمة والسلوقيين تيسيراً للعودة إليهما عند الحاجة:

ملوك البطالمة:

بطليموس الأول (سوتر) Ptolemy I (Soter)	٣٢٣ ـ ٢٨٢ ق. م
بطليموس الثاني (فيلادلفوس) Ptolemy II (Philadelphus)	٢٨٢ ـ ٢٤٦
بطليموس الثالث (ايفرغيتس) Ptolemy III (Evergetes)	٢٤٦ ـ ٢٢٢
بطليموس الرابع (فيلوباتر) Ptolemy IV (Philopator)	٢٢٢ ـ ٢٠٤
بطليموس الخامس (ابيفانس) Ptolemy V (Epiphanes)	٢٠٤ ـ ١٨٠
بطليموس السادس (فيلوميتر) Ptolemy VI (Philometor)	١٨٠ ـ ١٤٥

بطليموس السابع (ايفرغيتس الثاني) Ptolemy VII (Evergetes II)	١٤٥ ـ ١١٦
بطليموس الثامن (سوتر الثاني) Ptolemy VIII (Soter II)	١١٦ ـ ١٠٧
بطليموس التاسع Ptolemy IX	١٠٧ ـ ٨٨
بطليموس العاشر Ptolemy X	٨٨ ـ ٨٠
بطليموس الحادي عشر (أوليتوس) Ptolemy XI (Auletes)	٨٠ ـ ٥١
كليوباترة السابعة وبطليموس الثاني عشر Cleopatra VII and Ptolemy XII	٥١ ـ ٣٠
بطليموس الثالث عشر Ptolemy XIII	٥١ ـ ٤٧

واعتباراً من سنة ٣٠ق.م. أصبحت مصر ولاية رومانية.

ملوك السلوقيين:

سلوقس الأول (نيكاتور) Seleucus I (Nicator)	٣١٢ ـ ٢٨١ق. م.
أنطيوخُس الأول (سوتر) Antiochus I (Soter)	٢٨١ ـ ٢٦١
أنطيوخُس الثاني (ثيوس) Antiochus II (Theos)	٢٦١ ـ ٢٤٦
سلوقس الثاني (كَلينيكُس) Seleucus II (Calinicus)	٢٤٦ ـ ٢٢٥
أنطيوخُس الثالث (الكبير) Antiochus III (The Great)	٢٢٣ ـ ١٨٧
سلوقس الرابع (يوباتُر) Seleucus IV (Eupator)	١٨٧ ـ ١٧٥
أنطيوخُس الرابع (ابيفانِس) Antiochus IV (Epiphanes)	١٧٥ ـ ١٦٤
أنطيوخُس الخامس وديمتريوس الأول والإسكندر بالَس وأنطيوخس السادس	١٦٤ ـ ١٣٩
أنطيوخُس السابع (سيديتس) Antiochus VII (Sidites)	١٣٩ ـ ١٢٩
ديمتريوس الثاني Demetrius II	١٢٩ ـ ١٢٥
أنطيوخُس الثامن (غريبوس) Antiochus VIII (Grypus)	١٢٥ ـ ٩٦
أنطيوخس التاسع (كيزيسِنوس) Antiochus IX (Cyzicenus)	١١٥ ـ ٩٥

شُغِلَ البطالمة والسلوقيون، طوال القرن الثالث قبل الميلاد، بالتقاتل في سبيل السيطرة على الجزء الجنوبي من بلاد الشام. فقد كانت مصر ترى في تلك الرقعة خط الدفاع الأول عنها. فضلاً عن أن المنطقة كانت غنية بالأخشاب (جبال لبنان وبعض الجبال الفلسطينية) التي كانت مصر تفتقر إليها. كما كانت البلاد تنتج زيت الزيتون، وهو مادة نادرة في مصر. يُضاف إلى ذلك أن مصر كانت حريصة على السيطرة على الموانىء الفينيقية وعلى قبرص، وهي مراكز التجارة البحرية، كما كانت مصر شديدة الاهتمام بأن تكون الطرق التجارية البرية التي تربط بين شواطىء المتوسط وشمال الجزيرة العربية تحت نفوذها. وكان السلوقيون يسعون جاهدين إلى ضم جنوب بلاد الشام إلى أملاكهم كي يتمّ لهم التحكّم في الموانىء ذاتها والطرق التجارية نفسها. وقد زاد اهتمام السلوقيين بتلك المنطقة لما انفصلت الأجزاء الشرقية (من جنوب العراق وإلى الشرق) عن امبراطوريتهم، فخسروا بذلك السيطرة على الطرق البرية التي كانت تربطهم بـأواسط آسيا والصين. فأرادوا أن يستعيضوا عن ذلك بطريق الخليج العربي والمحيط الهندي.

وكان ثمة عنصر آخر يحمل البطالمة على التمسك بهذه المنطقة، أي جنوب بلاد الشام، هو الجنود المرتزقة. فقد انقطع عن البطالمة، بسبب الحروب الكثيرة بين المتنازعين من خلفاء الإسكندر، سبيل وصول ما يحتاجون إليه من الجند من مقدونيا. فأصبحوا يعتمدون على المرتزقة من الأدوميين والأعراب.

وقد شُنت حروب خمس بين الدولتين في القرن الثالث قبل الميلاد، وذلك بغية الانفراد بالسيطرة على جنوب بلاد الشام؛ وقد عُرفت هذه باسم الحروب السورية:

(أ) الحرب الأولى (٢٧٦ ـ ٢٧٢ ق.م): شنها بطليموس الثاني ضد أنطيوخُس الأول السلوقي. إلا أن هذا صدّ المصريين واستعاد دمشق. وبعد تبادل الحملات والقتال عقد الاثنان صلحاً احتفظ بموجبه بطليموس بفينيقيا وما إلى الجنوب من دمشق، على أن تظل هذه للملك السلوقي.

(ب) الحرب الثانية (٢٦٠ ـ ٢٥٥ ق.م): وهذه شنها أنطيوخس الثاني أملاً في استرداد ما كان قد ظل في أيدي البطالمة (على أساس الصلح السابق). ولما انتهت الحرب كانت الأجزاء التابعة للبطالمة قد تقلّصت. فبعد أن كانت الحدود الشمالية تبدأ من نقطة على الساحل تقع إلى الشمال من طرابلس (لعلّها كانت جَبْلَة؟) وتمتد إلى البقاع مارة جنوبي دمشق، أصبح الحد الشمالي يبدأ من نقطة تقع شمالي صيدا ويتجه خطه إلى البقاع ثم جنوبي دمشق.

(ج) الحرب الثالثة (٢٤٦ ــ ٢٤١ ق. م): لما تولى بطليموس الثالث عرش مصر (سنة ٢٤٦ ق. م) طمع في أن يمتلك بلاد الشام بأسرها. وقد نجح في الوصول إلى أنطاكية واحتلال سلوقية (الواقعة عند مصب العاصي). ومع أن سلوقس الثاني استرد الأجزاء الشمالية من سوريا، فإنه عاد فخسرها قبل نهاية الحرب.

(د) الحرب الرابعة (٢١٩ ــ ٢١٧ ق. م): بدأت هذه لما نجح أنطيوخس الثالث (الكبير) في استرداد سلوقية. فشجعه هذا على الاتجاه جنوباً، فسلّمت له مدن ساحلية كثيرة حتى وصل عكا. عندها استقر رأيه على احتلال ما تبقى من فلسطين قبل مهاجمة مصر. لكن بطليموس الرابع حشد جيشاً كبيراً من المصريين ومن مرتزقة آسيا. والتقى الملكان وجيشاهما في رفح (٢١٧ ق. م)، وكان في المعركة نحو ١٣٠,٠٠٠ جندي وقرابة مئتي فيل. ودارت الدائرة على أنطيوخس، واحتفظت مصر بفلسطين وفينيقيا، وهي المنطقة التي كان يُطلق عليها رسمياً اسم سوريا وفينيقيا (وكان يُشار إليها أحياناً باسم سوريا المجوَّفة).

(هـ) الحرب الخامسة (٢٠٢ ــ ٢٠٠ ق. م): أعاد أنطيوخس الثالث الكرّة وهاجم البطالمة. والتقى جيشُه القائدَ المصري في بانيون (بانياس) عند منابع الأردن، وانتصر أنطيوخس واستعاد عندها بلاد الشام بأجمعها. وأصبحت هذه المنطقة بعد ذلك جزءاً من المملكة السلوقية[٤].

ومع أن فلسطين قد أصابها الضرّ بسبب حروب الخلافة المبكرة، فإنها لم تتأثر مباشرة بالحروب السورية الثلاث الأولى، لذلك أُتيح لها أن تستمتع بنحو ثمانين سنة (في القرن الثالث قبل الميلاد) نعمت فيها بقسط من الاستقرار النسبي، فأفادت منها في تطوير اقتصادها.

أما في العصر السلوقي فلم يُتَح لفلسطين مثل هذا الاستقرار والهدوء. فإن أنطيوخس الثالث (الكبير) (٢٢٣ ــ ١٨٧ ق. م) لم يلبث، بعد أن انتزع فلسطين من البطالمة، أن خاض حرباً ضد رومة، الدولة التي ظهر نجمها في المغرب والتي كانت قد بدأت زحفها نحو المشرق. وقد غُلب أنطيوخس في معركة مغنيزيا Magnesia سنة ١٩٠ ق. م. وعقد صلح أفامية Apamea سنة ١٨٨ ق. م. واضطُر الملك السلوقي أن يدفع غرامة حربية لرومة قيمتها ١٢,٠٠٠ وزنة (وهي أكبر غرامة حربية عرفها التاريخ القديم)[٥].

كان موقف أنطيوخس الثالث من سكان منطقة بيت المقدس (اليهوديّة) مثل موقف أسلافه وموقفه هو بالذات من الشعوب المتعددة التي كانت تقطن الامبراطورية الواسعة، ومن مدنها وحكامها (راجع ما يلي). لكن الدولة السلوقية بدأت، بعد وفاته، تعاني مشكلات عديدة؛ منها الحروب التي كانت تشنها ضد الفرثيّين (في إيران وشرقيها) أو التي تواجه بها هجمات الفرثيين. فالدولتان كانتا في خصومة دائمة لأنهما كانتا تتنازعان حول منطقة ذات قيمة اقتصادية لكل منهما ــ أرض الرافدين والطرق التجارية. ومن مشكلات الدولة السلوقية الحروب الأهلية التي نشبت بين أصحاب الوراثة في العرش والمطالبين به ومغتصبيه وأدعيائه. ومنها موقف البطالمة العدائي الذي تجدد في أيام بطليموس السادس الذي جرّب استعادة ما فقده أسلافه من بلاد الشام. وكل من هذه المشكلات كانت تتطلب نفقات مالية كبيرة. وبذلك وقع السلوقيون في مصيبة الحاجة إلى جمع المال من الرعايا وعلى حساب الرعايا. وقد اضطُر أنطيوخس الرابع (١٧٥ ــ ١٦٤ ق. م) إلى أن يقود بضع حملات ضد بطليموس السادس. وقد وصل مشارف الإسكندرية وكاد يحتلها لولا أن تدخلت رومة (١٦٨ ق. م) وأمرته بالجلاء عن مصر[٦].

وفي السنة ١٧٥ق. م. قامت في فلسطين حرب المكابيين ضد السلوقيين، وهي الحرب التي استمرت أربعين سنة (١٧٥ ــ ١٣٥ ق. م) وانتهت بقيام الأسرة الحشمونية التي قضى بومبي عليها سنة ٦٣ق. م. لما احتل القدس. فأصبحت فلسطين عندها

تمثال افروديت في جبل الكرمل من القرن الثالث قبل الميلاد

جزءاً من الدولة الرومانية، شأنها في ذلك شأن جميع بلاد الشام[٧].

٢ ــ البطالمة والسلوقيون وفلسطين:

لم تكن فلسطين، حتى قبل مجيء الاسكندر، غريبة على اليونان، ولم يكونوا هم غرباء عنها. فبلاد اليونان الفقيرة في مواردها الطبيعية، عرفت، منذ القرن السابع قبل الميلاد، تفجّراً سكّانياً كبيراً، ترتب عليه أن خرج أبناء مدنها العديدة إلى سواحل البحرين ــ المتوسط والأسود ــ وإلى آسيا الصغرى؛ هناك أنشأوا عشرات المستوطنات المتباينة في عدد السكان وفي العمل الاقتصادي. وجاء تجار بلاد اليونان وبحارتها إلى موانىء فلسطين وفينيقيا ينقلون إليها ما عندهم من متاجر، وفي مقدمتها الفخار ومشتقاته، ويحملون منها ما كان يتجمع فيها من سلع الأقطار الواقعة إلى الشرق والجنوب. وهذه غزّة، على سبيل المثال، كانت من أكبر الموانىء التي كانت تنتهي إليها القوافل القادمة من جنوب الجزيرة ثم من البتراء محمّلة بالبخور والطيوب والأفاويه. فكان التاجر اليوناني يحمل منها حاجته. وإلى جانب التاجر اليوناني كان هناك تجار يجارونه ويتعاونون معه فينقلون السلع إلى موانىء البحر المتوسط الشمالية والغربية ــ إلى صور وصيدا وديلوس Delos ــ ثم إلى موانىء إيطاليا[٨].

ولم يكن يقل أهميةً عن التجار، بالنسبة لبلاد المشرق، العدد الكبير من مرتزقة اليونان الذين وجدوا في الانضمام إلى جيوش تلك البلاد مورد رزق كبيراً، فضلاً عن إرضاء روح المغامرة عند من يحبها. فالذي يعرفه التاريخ هو أن اليونان عملوا مرتزقة في جيوش الأشوريين المتأخّرين وفي جيوش الكلدانيين، إذ كان منهم عدد كبير في جيش نبوخذ نصّر الذي رابط في عسقلان (٦٠٥ ق. م). وقد استعملهم الفرس في جيوشهم التي كانت تقاتل في ولاياتهم الغربية. وفي القرن الرابع قبل الميلاد قامت ثورة ضد الفرس في مصر، فاستعان المصريون بالمرتزقة اليونان، وجاء الجيش الفارسي لإخماد الثورة، وكان فيه أيضاً مرتزقة يونان. وهكذا فقد كان المرتزقة اليونان يتقاتلون فيما بينهم دفاعاً عن خصمين. وبين سنتي ٣٨٠ و ٣٧٤ق. م. كان جيش فارسي يرابط في عكا، وكان جلّه من مرتزقة اليونان. وقد قامت ثورة في صيدا سنة ٣٥٠ق. م، فأخمدها مرتزقة اليونان لحساب الفرس. وقد ظهر من آثار التنقيب الأثري الذي أُجري في عتليت (على الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من حيفا) أن حامية فارسية، من مرتزقة اليونان، كانت تقيم هناك، كما بَدَت بقايا متاجر كثيرة كانت يونانية الأصل. ومن الطبيعي أن لا يقتصر أثر هؤلاء المرتزقة على المواقع التي أقاموا فيها، بل إنهم كانوا يتصلون ببقية السكان أيضاً[٩].

إلا أن حملات الاسكندر جاءت بنوع آخر من المقدونيين واليونان. فقد جاء هؤلاء البلاد فاتحين، وكانوا، شأنهم في ذلك شأن أكثر الفاتحين، عدوانيين في تصرفهم. كانوا يرمون إلى قطف ثمار الفتح. وقد أدرك السكان، في فلسطين والجوار، تفوق الفن العسكري اليوناني والتنظيم الحربي، وشعر الفاتحون بهذا التفوق، فلم يخفوا شعورهم بذلك في تصرفهم نحو سكان البلاد الأصليين، وخاصة في الفترة المبكرة من وجودهم. فآلة الحرب التي كانوا يملكون أدق، والحصون أكثر إتقاناً، والسفن كانت أضخم، وإعدادُ جنودهم كان أفضل. والجنود الذين رافقوا الاسكندر، وأولئك الذين جاء بهم خلفاؤه من بعد، كانوا، في نهاية المطاف، يقيمون في مستعمرات عسكرية أُنشئت لهم، كما كانت الحاميات تقيم في مدن تُعدُّ لها (للحاميات) إعداداً خاصاً أو تُبنى لها أصلاً. وقد مر بنا أن برديكاس، أحد قواد الاسكندر أنشأ أول مستعمرة عسكرية في فلسطين في مدينة السامرة.

لما كانت فلسطين تابعة للبطالمة أقاموا فيها حصوناً وبنوا قلاعاً وأنشأوا مدناً لهذه الحاميات، في غزة، وفي فيلوطريا Philetaireia، وفي بيسان وأسموها سكيثوبوليس Scythopolis، وفي عكا وأسموها بطوليمايس Ptolemais اعتباراً من سنة ٢٦١ ق. م، وفي عين جدي (في التلال المشرفة على البحر الميت في جزئه الجنوبي الغربي). هذا فضلاً عن تلك التي بنوها على الحدود الشمالية لممتلكاتهم. وحري بالذكر أن عدد المرتزقة من المقدونيين واليونان ازداد في فلسطين أيام السلوقيين بعد سنة ٢٠٠ ق. م[١٠].

يجدر بنا، قبل أن نتناول الشؤون الأساسية (الإدارية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية) لفلسطين في هذه الفترة الأولى من العصر الهلينستي، أن نضع بين يدي القارىء بضع ملحوظات عامة تتعلق بالسلوقيين والبطالمة الذين كان لهم دور هام في حياة البلاد.

كان السلوقيون يعتبرون أنفسهم ورثة الاسكندر في نظرته للعالم الذي فتحه، أكثر من البطالمة. فالاسكندر أراد أن يوحّد العالم عن طريق نشر الحضارة الهلينية في امبراطوريته. وهذا ما عني به السلوقيون وأخذوا على عاتقهم القيام به في البلاد التي حكموها، ولو في الظاهر. وكانت بلاد الشام الموقع الأخير الذي

Shahid, Irfan, *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century*, (Washington, D.C. Dumbarton Oaks, 1984).

———, *Rome and the Arabs*, (Washington, D.C., Dumbarton Oaks, 1984).

Socrates, «Church History», *NPNF*, 2nd Series, Vol. II, (New York, Christian Literature Co., 1890).

Stern, M., «The Province of Judaea», in Safrai, S. and Stern M. (eds.), *The Jewish People in the First Century*, Vol. I (Assen, Vangrocum and Comp. 1974), p. 308-376.

———, «The Reign of Herod and the Herodian Dynasty», in Safrai, S. and Stern, M. (eds.), *The Jewish People in the First Century*, Vol. I, (Assen, Vangrocum Comp., 1974), p. 216-307.

Tarn, W.W., «Alexander: Conquest of Persia», *C A H*, Vol. VI (Cambridge, University Press, rep. 1953), p. 352-386.

———, «The Great King and the Satraps», *C A H*, Vol. VI (Cambridge University Press, 1953), p. 19-45.

———, «Parthia», *C A H*, Vol. IX (Cambridge, University Press, rep. 1951), p. 574-615.

Tarn, W.W. and Charlesworth, M.P., «The Triumvirs», *C A H*, Vol. X (Cambridge, University Press, rep. 1952), p. 31-65.

Tarn, W.W. and Griffith, G.T., *Hellenistic Civilization*, 2nd Edition, (London, Arnold, 1959).

Tcherikover, Victor, *Hellenistic Civilization and the Jews*, (Philadelphia, The Jewish Publication Society of America, 1961).

Thomsen, P., «Die romischen Meilensteine — der Provinzen Syria, Arábia und Palästina», *ZDPV*, XL (1917), p. 1-103.

Triminghan, J. Spencer, *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, (London, Longman, 1979).

Vermes, Geza, *Dead Sea Strolls*, 2nd ed. (London, SCM Press, 1982).

Waterman, Leroy, *Preliminary Report on the University of Michigan Excavations at Sepphoris*, (Ann Arbor, Mich, University Press, 1937).

Yadin, Yigael, *Masada*, (London, Weidenfield and Nicholson, 1966).

Zeno (Papyrii) — editions and translations:

Edgar, C.C., 4 Vols., in *Catalogue Général des Antiquités Egyptiennes du Musée du Caire* (Vols. 79, 82, 85 and 89).

Guéraud, O. and Jouguet, P., *Zenon Papyrii*, (Vol. V), Publications de la Société Fouad I de Papyrologie, Textes et Documents (Le Caire, Service des Antiquités, 1940).

Westermann, W.L. and Hasenohrl (eds.), *Zenon Papyrii, Business Papers of the Third Century dealing with Palestine and Egypt*, Vols. I & II (New York, Columbia University Press, 1934, 1940).

Zernov, Nicolas, *Eastern Christendom*, (London, Weidenfield and Nicholson, 1961).

Ziadeh, Nicola A., «The Administration of Bilad ash-Sham from the Byzantines to the Early Arabs», in *Mélanges de l'Université St. Joseph*, Tome L (Vol. I & II, 1984), p. 787-812.